

ظاهرة وتعليلها

للاستاذ أحمد أمين

أعرفه غزير العلم واسع المعرفة، ولكنه يأتي أن يجالس أمثاله من العلماء، ولا يلذه إلا أن يجالس لفيضاً من صغار الناس في مهنتهم وعقليتهم؛ وليس الشراب هو الذي يجمعهم ويؤلف بينهم كما هو الشأن في كثير من الأحيان.

وأعرفها فتاة على جانب من الجمال، ولكنها لا تؤمن بجمالها، لأن أهلها أدخلوا في روعها من صغرها أن الجمال في البياض والحرمة والشعر الأصفر، وهي سمراء شديدة السمرة وليس في وجهها حمرة ولا في شعرها صفرة، فهي في اعتقادها ليس لديها من الجمال شيء، وأراها تصاحب فتاتين ليس فيهما من الجمال شيء، وتأتي أن تصاحب جميلة، وخاصة إذا كان جمالها في لونها الأبيض المشرب بحمرة.

وأعرفه فناناً كبيراً، ولكنه يأتي أن يجالس الفنانين الكبار أمثاله ويفضل أن يجلس إلى مبتدئ الفن يعلمهم ويصلح من أخطائهم، وهم من جانبهم يملقونه، ويفضون عليه من ألقاب الشناء ما يملؤه غبطة وسروراً.

وأعرف عشرات من هذه الأمثلة أشاهدها كل يوم، وأسمع بها كل حين وأقرأها في وصف كثير من الرجال والنساء، فأسرها؟

سرهما عندي أن من طبيعة الإنسان أنه يكره «الضعة»، ويكره كل ما يشعره بالضعة، ويحب العظمة ويحب كل ما يشعره بالعظمة.

من أجل هذا تراه — في العادة — يكره أن يجالس من هو خير منه في علمه وفنه وأدبه، لأن ذلك كله يشعره بصغر نفسه؛ وهو أقل كراهية لمجالسة من هو مثله، لأنه لا يحبط من شأن نفسه؛ وهو أشد حياء لمجالسة من دونه لأن ذلك يجعله أكثر شعوراً بعظمة نفسه.

ويمكن تطبيق ذلك على كثير من الأحداث اليومية

والمشاهدات المألوفة. ألتست ترى أن «حلبة الكميت»، أو جمعية الشراب تكره كل الكراهية أن يكون بينهم وقت شرابهم من لا يشرب، ويستقلونه مهما ظرف، ويستسمجونه مهما لطف، لأنه يذكركم بالفضيلة حين ارتكابهم الرذيلة، ويشعرهم بأنهم الرضعا وهو الرفيع، وأنه العين الناقدة وأنه الرقيب عليهم، وأنه العاد لسقطاتهم، وأنه المحتفظ بقوة إرادته عن ضعف إرادتهم؟ كل هذا يشعرهم بالضعة فيكرهونه، ويبدون بالالاحاح عليه أن يشرب لا حياء فيه ولكن حياء لأنفسهم، وإبعاداً لشعورهم بضعتهم، ولا يزالون يستحلفونه حتى إذا نجحوا أمنوا الشعور بالضعة، وإذا فشلوا مقتنوه ومقتنوا جلوسه بينهم، لأنه نفص عليهم بهجتهم — ومن أجل هذا أيضاً أحبوا أن يسمعوا أدب الخمر، وأحبوا أن يسمعوا من يفلسف لهم الحياة وأنها ليست إلا متعة الساعة وشهوة الوقت. فان تجاوز المحدث ذلك إلى أنه لا يعبأ بحرام ولا حلال، وأن يقول كما قال أبو نواس:

فان قالوا حرام قل حرام فان لذادة العيش الحرام
فذلك عندهم أظرف وأفكه لأنه اجتث الشعور بالضعة من جذوره.

هذا هو سبب العداء دائماً بين الفضيلة والرذيلة أو بين الفاضل والرذل، وهذا هو السبب في أن الرذل يكره الفاضل أكثر مما يكره الفاضل الرذل. لأن الرذل هو الذي يشعر بالضعة من روية الفاضل.

وهو السبب في أن الفقير يكره الغني أكثر من كره الغني للفقير. لأن الفقير هو الذي يشعر بالضعة إذا قاس نفسه بالغني وكثيراً ما يكون سبباً في فساد الحياة الزوجية، أن تكون في أحد الزوجين صفات راقية ليست في الآخر، فيشعر هذا الآخر بالضعة عند قياس نفسه بنفس قرينه فتسوء الحياة ويجهل السبب.

بل أرى أن في هذا القانون تفسيراً لكثير من الرجال والنساء الذين يحبون العزلة وينفرون من الناس.

تفسير هذا أنهم يشعرون بنقص فيهم من ناحية من النواحي الخلقية أو العلية أو الاجتماعية

كأن يشعروا أنهم لا يحسنون حديث المجالس ، أو أن في جسمهم عاهة من العاهات ، أو أنهم إذا جودوا أحموا ، أو إذا نيل منهم لم يستطيعوا أن يأخذوا بحقهم . فتراهم يفضلون العزلة ويتغنون بمدحها ، ويصون جام غضبهم وسخطهم على الناس ويطنون في ذم الأخلاق وسوء المجتمعات . والسير وراء ذلك كله ، وهو نقص في حب العزلة جعله يشعر بضعة نفسه في المجتمعات ؛ وهو يكره الضعة ويكره كل ما يسببها ، وهو لا يحب أن يلوم نفسه وهي السبب ، لأن في هذا ضعة أيضاً ، فيلوم الناس ويلوم المجتمعات ، ويكون مثله مثل من عجز من أن ينتقم من عدوه ، فانتقم من صديقه

أندري السبب في أن الشباب لا يودون كثيراً أن يجالسوا آبائهم ولا إخوانهم ولا أقرباءهم ويفضلون - غالباً - أن يجالسوا الغرباء ؟

هو أيضاً - هذا القانون ، فإن آبائهم وإخوانهم وأقرباءهم يعلمون نشأتهم وكل شيء فيهم ، وكل شيء حولهم ، وفي ذلك عيوب عرفوها ، وزلات وقعت تحت أعين الآباء ومن إليهم ، فالشباب يشعر بهذا التاريخ كله إذا جلس إليهم ، وهذا يشعره بالضعة . فهو يفضل عليهم صداقة الغرباء ، لأنهم يجهلون تاريخه ، ويجهلون زلاته فهو عندهم لا يشعر بنقص ، ولا يشعر بضعة ، فكان إليهم أميل ، وبهم آنس ؛ والمثل العربي يقول : برق لمن لا يعرفك ، ومعناه تبجح وهدد من لا يعرفك ، لأن من عرفك لا يعاب بك

لقد كان لي أستاذ في سن الخمسين وكان جلساؤه أقلهم في سن الستين ، فسألته في ذلك فقال : إني اخترتهم لأنني أشعر وأنا معهم أنني شاب

بل هذا هو السر في أن الرذيلة في كثير من الأحيان توثق الصداقة بين أصحابها ، فالمقامر أقرب إلى صداقة المقامر ، ومدمن الخمر إلى مدمنها ، والغزل إلى الغزل ، واللص إلى اللص ،

وقل أن ترى ذلك في الفضيلة ، فالصدق قل أن يؤلف بين اثنين لصدقهما ، ولا العدل إلى العدل ، ولا الصريح إلى الصريح والسبب في هذا أن ذوى الرذيلة يشعرون بالضعة من رذيلتهم فيهربون إلى الأراذل مثلهم حتى يتجردوا من هذا الشعور ؛ أما الشعور بالعدل أو الصدق فليس فيه هذا الألم فلا يحتاج صاحبه إلى البحث عن مهرب - وهو السبب في احتياج أصحاب الرذيلة إلى مخبأ ، فحجرة المقامرة مستورة ، ومجلس الشراب في مخبأ ، والغزلون يتسترون ، وعال الحشيش والكوكايين في حزن الخ ، وليس السبب في ذلك فقط أن رجال الأمن يطاردونهم ، بل أكاد أوقن أن هذه الأمور لو أبحث من رجال الأمن لتستروا أيضاً لأنهم يريدون أن يهربوا بأنفسهم من الشعور بالضعة أمام من لم ينغمسوا في الرذيلة انغمسهم

ألسنت ترى معي أن الرجل الملتزم للأخلاق المتشدد فيها أقل الناس أصدقاؤه وأشد الناس وحشة ، وكلما اشتد في تزمته اشتد الناس في كراهيته ، وأن الرجل كلما سما عقله بعد عن الناس وبعدها عنه ، وأنهم قد يجلونه ولكن لا يحبونه ، لأن سموه إعلان لضعفهم ، وعلوهم رمز لضعفهم ؟ ولعل كثيراً من صفحات التاريخ المملوءة باضطهاد العظماء ، وقتل النبلاء ، واغتيال الأبطال ، تستروراه هذا السر الكامن الخطير ، وهو أن الاضطهاد والقتل والاعتقال كان سيه الخلق شعور المدبرين بضعفهم أمام هؤلاء العظماء فتخلصوا من الشعور بالضعة بالقضاء على من كانوا سيهه - فلما انمحو من الوجود كان لا بأس عند من قتلهم أن يمجدهم ، وأن تمجدهم القرون بعدهم ، لأن الحقيقة الواقعة أشد إشعاراً بالضعة من الذكرى الماضية

وبعد فلا يستطيع الناس أن يتغلبوا على هذه الرذيلة وأن يجلس عالمهم إلى من هو أعلم منه ، وفنانهم إلى من هو أفن منه ، وفاضلهم إلى من هو أفضل منه ، يستفيد منه ويأخذ عنه في غير حقد ولا ضغن إلا بكثير من مجاهدة النفس وهبات ثم هبات

أحمد أمين